

"تمثلات القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي والأموي" دراسة مقارنة

"Representation of moral values in pre-Islamic and umayyad poetry" a comparative study

هشماوي رقية

Hachemaou Rokia

جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، Hachemaoui.rokia@univ-alger2.dz

تاريخ النشر: 2025/11/30

تاريخ القبول: 2025/05/30

تاريخ الاستلام: 2023/11/08

الملخص: تحاول هذه الدراسة الوقوف عند حقيقة الشعر عند الجاهليين والأمويين ومدى علاقة شعرهم بالقيم الأخلاقية أو ابتعاده عن ذلك، وعلى مدى تركيز نقادهم عليها كمعيار في تقييم النصوص الشعرية، كما أننا نحاول المقارنة بين هذين العصرين من خلال دراسة نقاط الاختلاف والالتقاء بينهما، مع التركيز على قضية علاقة الشعر بالأخلاق، ومدى مساهمة النقد في تقوية هذه العلاقة أو إضعافها، لذا وقفنا على مجموعة من النصوص الشعرية التي كانت بمثابة صورة عاكسة لأخلاقهم، تناولنا بعض النصوص النقدية التي كان فيها النقاد يحثون على التحلي بالقيم الفاضلة والأخلاق الرفيعة.

كلمات مفتاحية: شعر، أخلاق، جاهلي، أموي، نقد، مقارنة.

Abstract

The study tries to investigate the poetry in the pre-islamic and Umayyad, and the extent poetry is related to moral values or is it far from it and to which their critics focus on them as a criterion in the evaluation of poetic texts, and we try to compare these two eras by studying the points of difference and similarity between them, with a focusing on the issue of the relationship of poetry with ethics and the extent to which criticism contributes to strengthening or weakening this relationship; we focused on a group of poetic texts that served as a reflective image of their ethics and We have dealt with some critical texts in which critics urged virtuous values and high morals.

Keywords: poetry, ethics, ignorance, umayyad, criticism, comparison.

المؤلف المرسل: هشماوي رقية، الإيميل: Hachemaoui.rokia@univ-alger2.dz

مقدمة:

تعتبر الأخلاق من سمات الإنسان الجوهريّة التي تسموا به وتعلوا بقيمته إذ هو حافظ عليها، والتي تهوي به وتنزل من قيمته إن هو أهملها، فبالأخلاق يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات، وهي بدورها لا تنحصر على مجتمع دون آخر، أو عصر دون آخر إنما هي نصيب الإنسانية جمعاء، وقد حاول العرب الحفاظ على هذه القيم منذ نشوءهم وحرصوا على التحلي والتفاخر بأسمى القيم و الشمانل الطيبة، ولعل أكثر ما جسد لنا هذا الحرص وهذا الفخر بالسلوكات الإنسانية قديما هو الشعر، لكونه تعبير عن النفس الإنسانية في تجلياتها المتنوعة آنذاك، وقد احتفى الشعر منذ بداياته في العصر الجاهلي بالأخلاق، وسعى إلى تجسيد القيم الأخلاقية التي تظهر في سلوك الناس ومواقفهم، وازداد الاهتمام بها مع ظهور الإسلام فكان من أهم مبادئ الدعوة الإسلامية حسن السلوك وطيب الأخلاق وثباتها، والذي بدوره يقود إلى صلاح المجتمعات والأفراد، وقد بقي هذا متداولاً في العصور اللاحقة؛ لأن الأخلاق بالنسبة للعرب هي القاعدة الأساسية في بناء المجتمع وسموه وتحضره. فهل كانت علاقة الشعر بالأخلاق علاقة تكاملية لا يمكن للشعر الابتعاد عنها وخرقها لكونها هوية المجتمع أم أنه لم يعر لها أي اهتمام؟ وما رأي النقاد في هذه المسألة؟ وهل اختلفت رؤية الشعراء للأخلاق بين العصر الجاهلي والأموي؟ .

بناء على هذا جاءت دراستنا بهدف تسليط الضوء على حقيقة الشعر عند الجاهليين والأمويين، والفصل في الجدل القائم حول مدى علاقة شعرهم بالقيم الأخلاقية أو ابتعاده عن ذلك، وعن مدى تركيز نقادهم عليها كمعيار في تقييمهم، كما تهدف إلى تحديد الفرق بين العصرين الجاهلي والأموي من حيث الاهتمام بالأخلاق كمعيار لتقييم الشعر ونظمه. وقد ارتأينا لتقسيم الدراسة إلى مبحثين أولهما يتناول مسألة الشعر والأخلاق في العصرين الجاهلي والأموي، وهذا من خلال ذكر بعض النماذج فقط لكثرة وتشعب الموضوع واتساعه، فالأخلاق كما هو معروف لا حدود لها ولا يمكن حصرها في بحثنا هذا، وكذلك أشعار العصرين؛ إذ لا يمكن إحصاؤها، فهذا موضوع شاسع لذلك رأينا أن نختصر على بعض النماذج فحسب، أما المبحث الثاني فكان للمقارنة بين العصرين.

المبحث الأول: مسألة الشعر والأخلاق في العصرين الجاهلي والأموي:

كما سبق وذكرنا فإن الشعر ديوان العرب في تسجيل القيم الأخلاقية منذ العصر الجاهلي، ولقد انتشرت القيم الرفيعة والخصال الحميدة في هذا العصر انتشاراً واسعاً حسب ما صوّره لنا الشعر الجاهلي، فكان الشاعر عصره يفتخر بأخلاقه السامية وأخلاق قومه من كرم وشجاعة وصبر، وإغاثة الملهوف، والوفاء والمروءة، وغيرها من القيم السائدة حينها، وحرص الشعراء في هذا العصر على تجسيد أخلاقهم السامية في شعرهم، فنجد زهير بن

أبي سلمى من بين أهم الشعراء الذين أولوا الأخلاق أهمية كبيرة ومنحوها دورا ومكانا هاما في شعرهم، فقد ذاع صيته في القول المعروف والحكمة إما في المدح أو في حديثه عن نفسه أو في مجلس نصح وإرشاد، يقول في موضع مدح للحارث ابن زرقاء :

لَوْلَا ابْنُ زَرْقَاءَ، وَالْمَجْدُ التَّلِيدُ لَهُ كَانُوا قَلِيلًا، فَمَا عَزَّوْا، وَلَا كَنَزُوا

المجد في غيرهم، ولولا مآثره وصبره الكريم وصبره في الحرب الذي لولاه لما تهيبهم أحد، ونجد في موضع آخر يفخر

بوفائهم إذ يقول:

وَأَمَّا أَنْ يَقُولُوا: قَدْ وَفَّيْنَا بِذِمَّتِنَا، فَعَادَتْنَا الْوَفَاءُ (زهير، 1988، صفحة 18)

وفي مدحه للحارث يقول عن وفائه:

أَوْ صَالَحُوا فَلَهُ أَمْنٌ، وَمُنْتَفَذٌ وَعَقْدٌ أَهْلٍ وَفَاءٍ، غَيْرُ مَخْذُولٍ (زهير، 1988، صفحة 94)

أما عن الكرم والسخاء والتي هي من أعظم القيم التي كان الشعراء في الجاهلية يتفاخرون بها، فيتسابقون في العطاء، ذلك نتيجة الظروف المعيشية آنذاك فهي التي دفعت بهم للتخلي بهذه السمة لحاجتهم الملحة إليها، وفي هذا نجد زهير كأقرانه من الشعراء يحرص على الافتخار بهذه السمة ويدعوا إليها فيقول في هرم ابن سنان:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (زهير، 1988، صفحة 92)

وهذا ولابد من شدة كرمه.

كما نجد أيضا عنترة بن شداد يحذر من الغضب والعصبية؛ لأنه يرى فيه الدنو بالمكانة وعدم الوصول إلى المبتغى، وكذا ينهى عن الحقد من خلال نظراته إليه؛ إذ يجد أن الشريف السامي بمرتبته لا يجوز أن يكون الحقد والكراهية في قلبه فيقول:

لَا يَحْمِلُ الْحَقْدُ مَنْ تَعَلَّوْا بِهِ الرُّتْبُ وَلَا يَنَالُ الْعُلَا مَنْ طَبَعَهُ الْغَضَبُ (التبريزي، 1993، صفحة 5)

وفي موضع آخر نجد امرؤ القيس يفتخر بنفسه كونه ساعيا إلى مكارم الأخلاق فيقول:

وَكُلُّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ صَارَتْ إِلَيْهِ هِمَّتِي، وَبِهِ اكْتِسَابِي (أمرؤ، 2004، صفحة 78)

ونجد هذه السمة بادية هي الأخرى عند الشعراء الأمويين؛ إذ يفتخرون بأخلاقهم وأخلاق الطوائف التي ينتمون إليها، فكما نعلم فإن في العصر الأموي انقسم الناس إلى فرق وطوائف حزبية بعد الفتنة الكبرى بمقتل الخليفة عثمان بن عفان، لذا فكل شاعر ينتمي إلى حزب معين. وكما هو معلوم فإن للعرب عادات وتقاليد وقيم أخلاقية يتفاخرون بها في أشعارهم فبقيت هذه العملية مستمرة، إذ نجد في العصر الأموي شعراء يفتخرون

"تمثلات القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي والأموي" دراسة مقارنة

بشجاعتهم وشجاعة قومهم في أشعارهم، وكذا بالكرم والوفاء والمروءة... وغيرها من السمات التي تتجلى مرة في مدحهم لغيرهم، ومرة افتخاراً بأنفسهم، وأخرى في مجلس نصيح وإرشاد، وهذا ما وجدناه مجسداً في الشعر الجاهلي من خلال النماذج التي سبق وذكرناها. أما عن نماذج العصر الأموي - في سياق حديثنا - فنجد الفرزدق في افتخاره ومدحه لقبيلته تميم التي حملت لواء الدفاع عن الإسلام والمسلمين ولولاها لدخل الأعداء إلى البلاد فيقول:

وَرِثْنَا كِتَابَ اللَّهِ وَالْكَعْبَةَ النَّبِيَّ بِمَكَّةَ، مَحْجُوبًا عَلَيْهَا سُورُهَا
وَأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ حَيًّا وَمَا ضَمَنْتُ فِي الذَّاهِبِينَ قُبُورُهَا
لَنَا دُونَ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ طَرًّا شَمْسُهَا وَيُدُورُهَا
وَلَوْ أَنَّ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ يَحُوطُهَا سِوَانَا مِنَ الْأَحْيَاءِ ضَاعَتْ نُعُورُهَا (الفرزدق، 1987، الصفحات 197-198)

وفي موضع آخر نجده يفتخر بما ورثه عن أجداده وقومه الذين كانوا يغيثون المظلوم ويكرمون الضيف فيقول:

وَأَنَّ مَجَاشِعًا قَدْ حَمَلْتَنِي أُمُورًا لَنْ أُضَيِّعَهَا كِبَارًا
فَرَى الْأَضْيَافِ، لَيْلَةً كُلَّ رِيحٍ وَقَدْ مَا كُنْتُ لِلْأَضْيَافِ جَارًا (الفرزدق، 1987، صفحة 308)

أما جرير فقد أتى بصورة يفتخر فيها بكرمه وذلك حين نسب نفسه إلى حنضلة، إذ هي أكرم قبيلة في بني تميم، فالكرم من أجمل الصفات العربية التي تداول الشعراء على الافتخار بها، فيقول:

إِنِّي ابْنُ حَنْضَلَةَ الْحَسَانِ وَجُوهُهُم وَالْأَعْظَمِينَ مَسَاعِيًا وَجُدُودًا
وَالْأَكْزَمِينَ مَرْكَبًا، إِذْ رَكِبُوا، وَالْأَطْنَبِينَ مِنَ التُّرَابِ صَعِيدًا
وَلَهُمْ مَجَالِسُ لَا مَجَالِسَ مِثْلَهَا حَسَبًا، يُؤْتَلُّ طَارِقًا وَتَلِيدًا (جرير، 1986، صفحة 133)

ويأتي الأخطل بصورة أخرى من صور الافتخار، حيث يقرن فيها الكرم بالشجاعة، ويذكر أنه ومن شدة

كرم قومه فإنهم يفضلوا الضيف على أهلهم وأولادهم، يقول في هذا:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ إِذَا الْعِشَارُ تَرَوَّحَتْ هَدَجَ الرِّئَالِ تَكْبُهُنَّ شَمَالًا
تَرْمِي الْعِضَاءُ بِحَاصِبٍ مِنْ تَلْجِهَا حَتَّى يَبِيَّتَ عَلَى الْعِضَاءِ جُفَالًا
أَنَا نَعَجَلُ بِالْعَبِيطِ لِضَيْفِنَا قَبْلَ الْعِيَالِ وَنَقْتُلُ الْأَبْطَالَ (الأخطل، 2003، صفحة 246)

هذا فيما يخص مواطن التشابه بين الشعر في العصر الجاهلي و الأموي؛ إذ حافظ الشعراء الأمويون على تلك العادات الجاهلية في التغني بالقيم الأخلاقية السامية لأنها عند كلا العصرين بمثابة القانون الذي يحكمهم، فهي قيم تتفق مع عرف الجاهليين وقوانينها، وكذا تتفق وروح الإسلام.

المبحث الثاني: المقارنة بين العصرين:

لقد اتجه النقد في كلا العصرين في منحى واحد؛ إذ انقسم النقاد إلى نوعين، بين من يجعل من المعيار الخلفي أساسا في تقييم النصوص الأدبية ومن يقوم بتقييم الشعر بعيدا عن الالتزام الخلفي، لكن ما يمكن أن نلاحظه كاختلاف في هذه النقطة بين العصرين، هو أنه في الجاهلية أولئك الذين جعلوا من الأخلاق معيارا أساسيا لتقييم الشعر كان من دافع العادات والتقاليد وقوانين القبيلة، أما عن العصر الأموي فكان اتخاذ هذا المعيار جزءا أساسيا لتقييم الشعر من دافع ديني، إذ تأثرت هذه الفئة من النقاد والمتذوقين بالدعوة الإسلامية التي من أهم مبادئها التحلي بالأخلاق الحسنة.

والذي يجعلنا نسلم بوجود اختلاف بين هاذين العصرين، أنه في العصر الجاهلي والذي تحكمت بيئة الصحراء القاسية في حياتهم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، فهم في بحث مستمر عن مواطن الكأ والماء معتمدين على الغيث وإلا أصابهم إملاق، فهذا ما جعلهم يأخذون من المروءة بكل ما فيها من صفات الشجاعة والكرم والوفاء وإغاثة الملهوف من أهم صفاتهم، فالعيش يسهل بالتلاحم والتعاون ومساعدة الغير، لذا جعلوا شعرهم بمثابة وسيلة لإبراز مدى أهمية التحلي بالشجاعة ومساعدة الغير، فكان بذلك هدفهم من مدحهم وافتخارهم من أجل إعلاء مكانة الممدوح وإظهار أهمية تلك السمات، فقد كانوا يمدحون اعترافا بالجميل وتمجيذا للمثل العليا والصفات النبيلة، كما أنهم كانوا لا يمدحون الشخص إلا بما يتصف به.

وعلى غرار هذا فإن العصر الأموي بحكم بيئته المدنية المترفة ونظام الحكم السائد آنذاك، ولا ننسى الفتن والحروب ونشوء الفرق السياسية والدينية، وعودة العصبية القبلية، وأهم ما يذكر هاهنا هي الحياة التي عاشها الأمويون؛ بحيث اختلفت الأوضاع المعيشية فبعدها كان العرب يعيشون حياة شقاء وفقير مع وجود صعوبة في الحصول على أدنى سبل الحياة من مأكّل ومشرب، أصبح الناس - في بعض البيئات - في هذا العصر يتتعمون في العيش برفاهية وثراء فاحش من التجارة والتفتح على الآخر، ولابد أن لهذا التغير الجذري للبيئة أثر على الشعر، إذ أصبح الشعراء في هذا العصر بعد ما كانوا يمدحون اعترافا بالجميل يمدحون ذوي الجاه والأثرياء من أجل التكسب، فأصبح الشعر مصدرا للرزق بالنسبة لهم وذلك عن طريق مدح الأمراء، وكان الشاعر يصف الممدوح بكل مكارم الأخلاق السامية التي يعتز بها الإنسان العربي، وكلما تفنن في ذلك كانت عطايه أكثر وتقوى على أربابه، فمعظم الشعراء يمدحون ابتغاء تلك العطايا المقدمة إليهم، لذا فلا يهتم إن كان الممدوح يتسم بما يمدح به أو غير ذلك، فما يهمهم هو ما سيكسبون جراء ذلك، وهذا اختلاف واضح مع الشعراء الجاهليين الذين كان هدفهم الموعظة والتغني بتلك الخصال عن طريق مدح من يتصف بها، فما هو موقف النقاد من هذه الظاهرة؟

"تمثلات القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي والأموي" دراسة مقارنة

إننا إذا ما اطلعنا على ما ورد في كتب النقد الأدبية، نجد ابن رشيق القيرواني في وصفه للشعراء الجاهليين يقول: "وأما أكثر من تقدّم من الشعراء فالغالب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر، وقلة التعرض به لما في أيدي الناس، إلا فيما لا يزرى بقدر ولا مروءة، كالفلانة النادرة والمهمة العظيمة " (القيرواني، 2001، صفحة 82)، وكذلك ما قاله حسان بن ثابت في أبياته الشعرية دليل على غرض الشعر المنشود آنذاك إذ يقول:

وإنَّ أشعرَ ببيتٍ أنتَ قائله بيتٌ يُقالُ إذا أنشدته صدقاً

وإنما الشعرُ لبُّ المرءِ يعرضه على الخلاقِ إن كيساً وإن حمقاً (القيرواني، 2001، صفحة 114)

فكما يبدو فإن ظاهرة التكسب بالشعر لم تكن مقبولة في هذا الزمان، إنما يجب مدح المرء لكونه يستحق ذلك، لما يمتلك من خصال حميدة تتجلى في كرمه وشجاعته ومروءته، ليس من أجل العطاء وكسب المال.

أما في العصر الأموي فكما سبق الذكر فإن ظاهرة التكسب بالشعر جلية وواضحة، فنجد مع قصة جرير والخليفة عمر بن عبد العزيز حين أتاه مجموعة من الشعراء فأبى أن يستمع إليهم عاداه، وحين أنشده شعره أعطاه الخليفة مائة درهم قال له جرير: " والله يا أمير المؤمنين أنه أحب مال إليّ كسبته " (عتيق، 1986، صفحة 242) ولربما هذا دليل على أن الشعراء يتكسبون من شعرهم آنذاك، ويجعلون منه مصدر رزقهم فقد غلبت النفعية على معظم شعراء المديح في هذه المدة، وكان منهم من يصرح بحاجته وغرضه من المديح، وفي ذلك نجد الفرزدق كان صريحاً مع الخليفة على أنه ينتظر منه عطية، وهو يشعر بالأمان من الفقر مادام في كنف الخليفة، إذ أنه ولا بد سيمنحه حقه في مدحته فيقول:

ومن أين أخشى الفقرَ بعدَ الذي النقي يكفيكَ من المعروفِ ما أنا طالبُهُ

فإن دَنُوباً من سِجِّالكِ مالى حيّاضِي، فأفرغ لي دَنُوباً أناهبُهُ (الفرزدق، 1987، صفحة 82)

وفي جهة أخرى نجد جرير هو الآخر يتجه إلى الخليفة آملاً في عطائه، مصوراً مدى عوزه وحاجته فيقول:

أغشى، يا فِدَاكَ أبِي وأُمِّي، بسببِ مُنْكَ، إنَّكَ دُو اِرْتِيَا حِ

فإنِّي قد رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقّاً زيارتي الخليفة وامتدّاحي

سأشكُرُ أن رَدَدْتَ عَلَيَّ ريشي وأثبتَّ القَوائِمَ في جَنَاحِي (جرير، 1986، صفحة 77)

ونجده في موضع آخر لمدح الخليفة، يجاهر كذلك بالطلب وبغرضه وهدفه في العطاء والتكسب، فنجده يضع نفسه مع زمرة الفقراء ولابن السبيل حق كذلك في العطايا التي يقدّمها الأغنياء، فيقول في هذا:

إني لأملُ مِنْكَ خيراً عاجلاً والنفسُ مَوْلَعَةٌ بِحُبِّ العاجِلِ

والله أنزل في الكتاب فريضةً لابن السبيل وللفقير العائل (جرير، 1986، صفحة 331)

وهذه أدلة واضحة على انتشار ظاهرة التكسب في هذا العصر، وبذلك فإنَّ غرضهم من المدح في الأغلب لا يكون افتخارا وتغني بالخصال الحميدة إنّما من أجل العطايا المقدّمة، وهذا ما يبعد الشعر عن أهم صفة أخلاقية ألا وهي الصدق في القول .

لعل أهم ما يميز العصر الأموي عن الجاهلي هو الدين الإسلامي الجديد والذي جاء حاملا لواء الدفاع عن القيم الأخلاقية وترسيخها في المجتمع بين الأفراد، وبهذا اختلفت النظرة إلى الأخلاق باعتبارها عادات وتقاليده تركها الأولون كما في العصر الجاهلي، فأخذت مسار ديني إذ أصبح الناس يسعون للتخلي بالقيم المجيدة لأن القرآن والسنة أوصت بذلك ولأن تلك من شيم المسلمين، وبما أنّ الشعر ديوان العرب فقد أخذ الشعراء آنذاك بالتوسع في المعاني الإسلامية من شرح العقيدة والدعوة إلى التقاني في سبيل الدعوة والجهاد في سبيل الله " ومعنى ذلك أنّ الحياة الدينية طورت الشعر الأموي وأثرت أثرا عميقا في نفوس الشعراء " (شوقي، د.ت، صفحة 64) بيد أنّ هذا لم يكن إلّا مع بعضهم، فمع ظهور أغراض شعرية جديدة لم تكن جلية في العصر الجاهلي كالشعر السياسي الذي ذاع صيته آنذاك وذلك بسبب الوضع السائد عصرئذ، وتطور الغزل الذي أصبح على نوعين: الأول يتمثل في الغزل البدوي العفيف فيه يصور العاطفة الصادقة للشاعر، وبيتعد عن مفاتن المرأة ويهيم فقط بمعاني الوفاء والطهارة والشكوى والألم لفراق المحبوب، والثاني هو الغزل الصريح الذي يتناول مفاتن المرأة الحسية، وذلك نظرا لحياة الترف والرخاء التي عاشها الشعراء وانتشار الغناء آنذاك، وظهور شعر النقائض والذي يمثل تلك المعارك الهجائية وذلك ناتج عن الشعب القبلي وأشهر شعرائه جرير والفرزدق والأخطل، فمع ظهور كل هذه الأغراض الجديدة والتي لم تكن موجودة في العصر الجاهلي، فإنَّ الشعراء ابتعدوا عن التغني بالأخلاق ولم يعد الالتزام في شعرهم أمر ضروري لاسيما مع الغزل الصريح وشعر النقائض في الهجاء والسخرية من الآخر للإنزال من مكانته، فالغزل الصريح أو بمعنى آخر غزل إباضي يؤمن باللهو في الحب، كما يقوم الشاعر بعدّ أسماء محبوباته؛ بحيث أنه لا يكتفي بواحدة، وفي بعض الأحيان يحب مجموعة من النساء في وقت واحد، وقد انتشر هذا في العصر الأموي بسبب حياة النعيم والمجون والترف الذي يعيشون فيه، وكذلك انتشار فنّ الغناء، وقد ارتبط الشعر في هذا العصر بالغناء في بلاد الحجاز، ونحن ندرك أنّ الغزل كان موجودا في الجاهلية، إنّما وجوده كان من بين أحد الأغراض المتعددة في القصيدة الواحدة؛ إذ أنّ الشاعر - كما هو معروف - آنذاك ينتقل من غرض إلى آخر في القصيدة الواحدة، بينما في العصر الأموي كانت القصيدة غزلية بشكل كامل فلا يذكر الشاعر غير الغزل في قصيدته، ومن أهم الشعراء الذين اشتهروا بهذا النوع من الشعر - الغزل الصريح - عمر بن أبي ربيعة، فقد تميزت

"تمثيلات القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي والأموي" دراسة مقارنة

أشعاره بذاك الغزل الماجن والمنحرف، وهذا لاختلاطه الكبير بالنساء، وفي قصائده يتغزل في كل مرة بامرأة؛ إذ يذكر مرة هنذا وأخرى ليلي وتارة أسماء... ونذكر على سبيل قوله في هند:

لَيْتَ هَذَا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعْدُ وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجْدُ
زَعَمُوهَا سَأَلْتُ جَارَاتِهَا وَتَعَرَّتْ ذَاتَ يَوْمٍ تَبْتَرِدُ
أَكَمَا يَنْعَثُنِي تُبْصِرْنِي عُمْرُكَ اللَّهُ أَمْ لَا يَفْتَصِدُ (ربيعه، 1996، صفحة 106)

إلى نهاية القصيدة وغيرها من القصائد الطوال والقصيرة منها، كلها غزل فاحش وصريح .

أما عن شعر النقائض فهو وبسبب الصراعات الحزبية والسياسية بين المسلمين فقد أخذ طريق السخرية والاستهتار بالآخر للتأكيد على أفضليات ومفاخر الشاعر، فكان الشعراء يسخرون من ضعف أحدهم وضعف حسيه ونسبه وفقر قبيلته، وفي المقابل يفخر بنفسه وانتمائيه، وكل هذا من أجل لفت الانتباه ولابد أن هذا من بين العوامل التي خلقت العصبية لدى الدولة الأموية، ومن أهم الشعراء الذين حملوا لواء هذا الفن في هذا العصر هم كما لقيوا بالمثلث الأموي، جرير والفرزدق والأخطل، فقد اشتهر هؤلاء بالمعارك الهجائية، ومن أهم هذه المعارك التي ارتأيناها هي تلك التي أقاموها هجاء على المرأة، فكل واحد منهم يهجو نساء قبيلة الآخر ويتعرض لهنّ بالقذف والتجريح والفحش، حتى أنهم تناولوا أعراض الأمهات وفي ذلك نجد جرير يقول في أم الأخطل:

لَعَنَ الْإِلَهُ نُسِيَّةً مِنْ تَغْلِبٍ يَرْفَعَنَّ مِنْ قِطْعِ الْعَبَاءِ خُدُورًا
وَكَأَنَّمَا بَصَقَ الْجَرَادُ بِلَيْتِهَا فَالْوَجْهَ لَا حَسَنًا وَلَا مُنْضُورًا
لَمْ يَجِرْ مَذْ خُلِقَتْ عَلَى أَنْيَابِهَا مَاءُ السَّوَالِكِ وَلَمْ تَمَسَّ طَهُورًا (جرير، 1986، صفحة 225)

فلقد أهان الشاعر هنا أم الأخطل بتصويرها بصورة شنيعة ومهينة، كما يتعرض الأخطل لوالدة جرير في نقضه وهجائه، ويلصق صفة اللؤم فيها في صورة ساخرة، إذ يقول:

مَا كَانَ مَنْزِلُكَ الْمَرْوَتِ مُنْجَرًا يَا ابْنَ الْمَرَاعَةِ، يَا حَبْلَى، بِمُخْتَارِ
جَاءَتْ بِهِ مُعْجَلًا عَنْ غِيبِ سَابِعَةٍ مِنْ ذِي لِهَالَةٍ جَهْمِ الْوَجْهِ، كَالْقَارِ
أُمُّ لَنِيْمَةٍ نَجَلِ الْفَحْلِ مُقْرِفَةٍ أَدَّتْ لِفَحْلٍ لَيْيَمِ النَّجْلِ شَخَّارِ (الأخطل، 2003، الصفحات

167-168)

أما الفرزدق فيرد على جرير ويصف أمه بالمراغة والتي تعني أنها امرأة فاسدة فيقول:

يَا ابْنَ الْمَرَاعَةِ، وَالْهَجَاءِ إِذَا التَّقَتْ أَعْنَأُفُهُ وَتَمَاحَكَ الْخَصْمَانِ
مَا ضَرَّ تَغْلِبَةً وَإِلَّاهُجَوْتَهَا أَمْ بُلْتُ حَيْثُ تَتَاطَحُ الْبُحْرَانِ

يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ، إِنَّ تَغْلَبَ وَائِلٌ، رَفَعُوا عَنَّا فِي فَوْقَ كُلِّ عَنَانٍ (الفرزدق، 1987، صفحة 239)

ما هو واضح في هذه الصور الثلاثة، الاستهزاء والإطاحة من قيمة الآخر بتصويره بأبشع الصور، وما كان الهدف من كل هذه المعارك سوى الاستهتار والسخرية عن طريق كشف العيوب بلغة لاذعة وتهكمية، فمع هاذين الغرضين المذكورين - الغزل الصريح والنقائض في الهجاء - فإننا نجد الشعراء قد ابتعدوا عن الأخلاق والقيم والمبادئ السامية، فنحن ندرك أنَّ الأخلاق الحسنة تظهر في الكلام الطيب والابتعاد عن لغوه الذي يسبب الفتنة والعداوة بين الناس، وما في هاذين الغرضين عكس ذلك تماما إذ فيه من لغو الكلام ما يجعل من الفتنة تنتشر بين الناس وتفرق بينهم، وهذا ما لا نلاحظه منتشرا في الشعر الجاهلي مقارنة مع ما وردنا من الشعر الأموي، ورثنا للنقاد دور وإسهام في هذا، ذلك لأنهم لم يهتموا بالأخلاق كمعيار أساسي لنقد الشعر، إنما فئة منهم فقط اهتمت بهذا الأمر، وحاولت تنقيح الشعر من لغو الكلام، لكن فئة أخرى لم تعر للأخلاق الاهتمام ممَّا شجع هذه الأغراض على البروز أكثر.

أما عن الصفات الأخلاقية فإننا إذا أمعنا النظر وجدنا أنَّ دلالتها بقيت ثابتة بين العصرين ولم تتغير، إذ أنَّ الشجاعة كانت في العصر الجاهلي تعنى بالإقدام على المخاطر دون الخوف وهذا مفهومها في العصر الأموي، وقد قورنت في كلا العصرين بالاعتراف بحتمية الموت وأن المصير واحد ولا مفر منه، وكذلك مع الكرم والصدق والوفاء والمروءة، فكل هذه المفاهيم كانت على نفس الشاكلة إذ كما سبق ورأينا فإن البيئة الأموية من ظروفها السياسية وعودة العصبية القبلية قد أعادت الحياة الجاهلية بكل ظواهرها، بذلك كانت الأخلاق على شكل واحد، ولم نتبين وجود أخلاق جديدة ظهرت، على عكس ذلك كان الشعر في هذا العصر محافظا على الصبغة الجاهلية، إلا من ناحية ظهور الأغراض الجديدة كما سبق لنا الذكر .

هذا ما تمكنا من ملاحظته حول العصرين فيما يخص نقاط الالتقاء والاختلاف فيما بينهما، وفيما يخص الموضوع المدروس قضية علاقة الشعر بالأخلاق، مع دور النقد في تقوية هذه العلاقة أو إضعافها.

خاتمة:

إن الشعر ذو مكانة مرموقة عند العرب، لأنه كان ديوانهم الذي يحمل أخبارهم ومناقبهم ومثالبهم، والأخلاق سمة فطرية في المجتمع العربي يتباهى ويفخر بها على مر العصور، وبالمقارنة بين العصرين الجاهلي والأموي في شعرهم خلصنا إلى أن الشعر الجاهلي كان أقرب منه إلى الأخلاق من العصر الأموي فلقد جعل الشعراء الجاهليون من الشعر ما يعبر عن عواطفهم الجياشة، وعن فخرهم واعتزازهم بأخلاقهم وأخلاق قبائلهم، إذ هبَّ الشعراء آنذاك

"تمثيلات القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي والأموي" دراسة مقارنة

إلى الافتخار بشجاعة قبائلهم وكرمها مصورين ذلك بأرقى الصور الشعرية وأجملها، وهاتين الصفتين قد أخذتا حظاً وافراً ونصيباً من شعرهم على غرار الصفات الأخرى.

أما النقاد فقد انقسموا إلى قسمين فمنهم من يهتم بنقد الشعر بالاعتماد على المعيار الأخلاقي، ومنهم من لا يهتم إلا بالجانب الفني، وبمقارنة حالة النقد في العصر الجاهلي فإنه يمكن لنا القول في أنه أسهم في تهذيب الشعر من الناحية الأخلاقية إذا ما قورن مع الفئة التي لم تهتم بالالتزام الخلقي، فالنقد كما نعلم في بدايات ظهوره لم يكن قوياً ولا حتى قائماً على معايير وأسس محددة.

مع ظهور الأغراض الجديدة في العصر الأموي من شعر سياسي وشعر الغزل الإباحي الصريح، وكذلك النقائض في الهجاء، أبعد الشعراء نوعاً ما من الالتزام بالأخلاق الفاضلة لمجاهرتهم بلغو الكلام.

في العصر الأموي برزت ظاهرة التكبُّب بالشعر، فأضحى الشعراء يتنافسون في مدح الخلفاء وذوي الجاه من أجل عطايهم وهذا ما أبعد الشعر عن صفة الصدق في القول، وهي أهم الخصال الأخلاقية الحميدة.

مع مقارنة العصر الأموي بالعصر الجاهلي، فإنَّ الشعر في هذا الأخير أقرب منه إلى الأخلاق والالتزام عن العصر الأموي، رغم أنَّ هذا العصر قد انفتح على الدين الإسلامي والدين بدوره يهتم بالأخلاق والمبادئ الفاضلة أكثر شيء.

قائمة المراجع:

1. ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط1، ج1، 2001م.
2. شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة مصر، ط9، دت.
3. عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط4، 1986م.
4. الأخطل: الديوان، تح: سوزان عكاري، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط1، 2003م.
5. امرؤ القيس: الديوان، شر: عبد الرحمن المصطفاوي، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط2، 2004م.
6. التبريزي: شرح ديوان عنتر، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1، 1993م.
7. جرير: الديوان، دار بيروت، بيروت لبنان، 1986م.
8. زهير بين أبي سلمى: الديوان، شر: على حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1988م.
9. عمر بن أبي ربيعة: الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط2، 1996م.
10. الفرزدق: الديوان، شر: على حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1987م.